مجلة المعجمية - تونس

ع 5-6

1990

بعض الاشكالات المنهجية الخاصة بالمعجم العربي التاريخي

بحث : الطيب البكوش

1 ـ تقديم :

1 ـ 1 : إن العلاقة بين اللسان الطبيعي واللغة البشرية تمثّل إحدى العلاقات الاساسية في اللسانيات الحديثة انطلاقا من نظريات فردنان دي سوسور[1] الذي يؤكد أن اللسان هو المظهر الاجتماعي من اللغة البشرية لانه يمثل كنزا مشتركا وإرثا جماعيا يتصرف فيه الفرد في مستوى ما ينجزه من حديث وخطاب تصرفا لا يستوفي مطلقا جميع إمكانياته ولا يزيده أو يغير منه شيئا الا في حدود ما تقتضيه هياكله وقواعده من ناحية، وحاجيات المجموعة التي تشترك فيه من ناحية اخرى.

1 ـ 2 : ولعل المعجم ـ أي مجموع الوحدات الدلالية أو اللفاظم ـ يمثل النظام الذي يبدو لأول وهلة أبسط ولكنه في الحقيقة أعقد الانظمة والهياكل التي تكوّن اللسان، فالهياكل الصوتية والقواعد النحوية تمثل بصفة عامة أنظمة مغلقة قابلة للحصر والوصف الشامل نسبيا. اما الهياكل المعجمية فانها تمثل **نظاما مفتوحا** شديد التغير قابلا

---

(1) ـ دروس في الالسنية العامة. تعريب صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة ـ الدار العربية للكتاب – تونس 1985.

باستمرار للزيادة والنقصان. هذا بالاضافة الى ثنائية الوحدات المعجمية المتكونة ضرورة من شكل ومحتوى أو دال ومدلول. هذه الثنائية، ولا سيما الوجه المدلولي منها، تجعل دراسة المعجم مرتبطة بدراسة المجتمع الذي يستعمل ذلك اللسان.

وعلى هذا الاساس فان تاريخ مدلول من المدلولات او ظهور كلمة او تطورها هو في نهاية الامر تاريخ جزء من حضارة المجتمع الناطق بذلك اللسان.

ولما كان ظهور وحدة من وحدات المعجم او تغيرها مؤثرا بالضرورة في المجموعات المعجمية والهياكل التي ترتبط بها، فان تطور المجموعات المعجمية مرتبط بدوره بتطور الهياكل الاجتماعية[2].

1 ـ 3 : بيد انه من النادر جدا ان يبقى الناطقون بلسان من الالسن بمعزل عن غيرهم من الناطقين بلسان آخر. وان الاحتكاك الناتج عن الاتصال لا يمكن ان يبقى بدون اثر في اللغة. ومن البديهي ان تكون درجة التفاعل اللساني في تناسب ودرجة الاحتكاك البشري. ولذلك يمكن التأريخ لعلاقات الشعوب والدول من خلال مقارنة معجم ألسنتهم[3]. وإنه لا غضاضة على اي لسان من تبني الدخيل الذي لا يخلو منه لسان، ان لم نقل مع «فاقنر» إنه «لا يمكن لايّ لسان ان يطمح الى ان يكون لسان حضارة اذا ما اقتصر على رصيده الخاص»[4] فالدخيل الذي يندمج في هياكل اللسان المتقبل يصبح جزءا منه.

---

(2) ـ Dictionnaire et histoire du vocabulaire, R.L. Wagner في *Le Français moderne* عدد 3 جويلية 1970، ص 193 ـ 198.

(3) ـ نفس المصدر ص 197 ـ حيث يدعو الى تسجيل اكثر ما يمكن من ألفاظ المهاجرين الى فرنسا بتواريخها ومراجعها استعدادا لاحتمال استقرار البعض منها وتبني القاموس لها.

(4) ـ نفس المصدر.

1 ـ 4 : وعلى هذا الاساس فان جرد وحدات المعجم العربي بمستعملـه وغريبـه ومولّـده ومعرّبـه يمثّل جردا للحضـارة العربية الاسلامية باكملها.

وان استغلال هذه المادة المعجمية لا يحقق اهدافه الا اذا تجاوز القائمات المشروحة شرحا لغويا تقليديا كما نجد في القواميس العربية المتداولة وارتقى الى مستوى القاموس التاريخي. بيد ان هذه التسمية لا تخلو من غموض، فهي تثير قضية تحديد الموضوع والمفاهيم التي يقوم عليها.

2 ـ قضية تحديد الموضوع والمفاهيم:

2 ـ 1 : تاريخ الكلمة = قصتها

ان المعجم التاريخي يمكن ان يفهم على انه معجم يضم قائمة من الكلمات لها قصة خاصة هي قصة حياة الكلمة منذ نشأتها وما عرفته من استعمالات وما حفّ بها من دلالات وما طرأ عليها من تغييرات. بل يمكن الخروج عن حدود اللسان الذي تنتمي الكلمة الى نظامه لملاحقة الكلمة في رحلتها عبر الزمان والمكان الى ألسنة اخرى. هذا النوع من المعـاجم ليس قامـوسـا بقـدر ما هو قصة حياة مجموعة من الكلمات المحدودة، إذ ليست الكلمات جميعا لها قصة معروفة تستحق الذكر، ولا نعـرف في العـربية تأليفـا من هذا النمط بينـما عرفت بعض اللغات الاخرى في السنين الاخيرة مؤلفات من هذا القبيل[5].

2 ـ 2 : تاريخ الكلمة = تأريخها

ويمكن ان نفهم ايضـا من المعجم التـاريخي الجانب التأريخي المتمثل في ذكر تواريخ الكلمات من حيث ظهورها في نظام لسان من خلال استعمالاتها الاولى.

---

(5) ـ نذكرمنها على سبيل المثال في الفرنسية:

Gilles Henry, *Dictionnaire des mots qui ont* une histoire, Tallandier 1989, 272 p.

ومن البـديهي ان ظهور كلمة من الكلمات في نظام لسان من الالسن يسبق في اغلب الاحيان الاستعمالات المسجلة، اذا استثنينا المصطلحات الفنية التي كثيرا ما يسبق استعمالها دخولها النظام اللغوي بعكس الكلمات العادية.

لذلك فان التواريخ التي نجدها في قواميس الالسن الاوروبية لا تعدو أن تكون في كثير من الاحيان **تواريخ نسبية تقريبية** تسجل اول استعمال **مكتوب**، بينما المقول أسبق من المكتوب. بيد أن ذكر تاريخ مضبـوط (سنـة ظهـور الكلمـة مثـلا) مهما كانت نسبيّته، يمثل احد العنـاصر الاسـاسية في تحديد الكلمـة لانـه يمكن من معـرفـة اتجاه الاشتقاق مثلا.

فاتجـاه الاشتقـاق ليس قارا وانما يتغير. فقد يشتق الاسم من الفعل كما يمكن ان يحدث العكس:

بـــاع ←— مبيـــع

خيمـــة ←— خيّـــم

وقد تتواجد الاتجاهات المتقابلة في نفس المادة:

سمَـــر ←— مسمـــار ←— مَسمَـــر

لذلك يمكن أن نقول إن ضبط التواريخ من العمليات الاساسية في المعجم التاريخي.

لكن التواريخ وحدها غير كافية في تحديد الكلمة لان التحديد عملية معقـدة تتـطلب تجميع عديد المعـطيات انطلاقا من الاصل. ويمكن ان نسمي عملية التأصيل **تأثيلا**[6]. وهو ما يمثّل البعد الثالث الاهم في المعجم التاريخي.

2 ـ 3 : **تاريخ الكلمة = تأثيلها**

2 ـ 3 ـ 1 : ولما كان المعنى اليوناني الاصلي للكلمة الفرنسية هو

---

(6) Etymologie ـ

«حقيقي»[7]، فان هذا المنهج اللساني يتمثل في الاصل في معرفة المعنى الحقيقي للكلمة اي المعنى الاصلي. وهو ما تدل عليه في العربية صيغة «التأثيل» اي الرجوع الى الاصل الاصيل.

2 ـ 3 ـ 2 : ويدل مفهوم «التأثيل» في اللسانيات الحديثة على فرع من فروع اللسانيات موضوعه دراسة نشأة الكلمات من حيث الزمن ومن حيث العلاقة بين الصيغة الاصلية والصيغة الفرعية المشتقة منها سواء أكان التفرع صرفيا، أي ظهور صيغة جديدة، أم دلاليا، اي ظهور معنى جديد. ومن هذا المنطلق فان التأثيل من ناحية **عملية لسانية** تعتمد المقارنة بين الصيغ والدلالات **لتمييز الاصول والفروع**، ومن ناحية اخرى **عملية تاريخية حضارية** لانها تستعين بدراسة المجتمعات والمؤسسات وسائر العلوم والفنون للبت في القضايا اللسانية بالاضافة الى مقارنة الالسن لمعرفة أنسابها وأنماطها لأن اللسان الذي يكون فرعا تكون ألفاظه فروعا.

2 ـ 3 ـ 3 : فالتأثيل اذن علم يأخذ من كل العلوم وينفتح عليها جميعا فتأخذ منه بدورها، اذ لا فرق في نهاية المطاف كبيرا بين دراسة الاشياء من خلال اللسان او دراسة اللسان من خلال معرفة الاشياء التي يعبر عنها اللسان.

وان تشابك مختلف العلوم في عملية التأثيل يجعل منه عملية دقيقة تتطلب غزارة علم وحصافة رأي وشمول نظر. كما ان تشابك عديد اللغات في هذا الاطار قد جعل البعض يقترح لها «فريقا عالميا يعمل باشراف خبير»[8].

2 ـ 3 ـ 4 : ولقد تطور هذا العلم في اتجاهات ثلاثة[9] قائمة على ثلاث منهجيات :

---

(7) Etumos ـ

(8) P. Imbs – Au seuil de la Lexicographie : *Cahiers de Lexicologie* عدد 2 – 1960، ص 3 ـ 17.

(9) P. Guiraud ـ *L'Etymologie*; Que sait-je? عدد 1122 ـ ط. 1964 / 1969 ـ ص 8.

أ ـ **المنهجية الصوتية التاريخية**، المتولدة عن النحو المقارن الذي طبع الدراسات اللسانية في اوروبا في أواسط القرن الماضي. وهي تتميز أساسا بالاعتماد على القوانين الصوتية في درس الظواهر اللسانية.

ب ـ **المنهجية المعجمية التاريخية** التي بدأ تطبيقها بتأثير الهيكلية منذ قرابة نصف القرن في الغرب. وهي لا تقارن صوتيا ظواهر مفردة كالسابقة وانما تقارن جميع الصيغ وجميع الدلالات التي تشترك في صفات تجعل منها مجموعة متميزة.

كما تتميز هذه المنهجية بالتركيز **على العوامل الخارجية** كالزمان والمكان والمرجع وما اليها من ظروف التسمية المتحكمة في نشأة الكلمة المدروسة.

ج ـ **منهجية التحليل الداخلي**، وهي الأخيرة والأحْدَث، وهي لا تُلْغِي ما سبق وانما تكمل دراسة العوامل الخارجية اي التاريخية بدراسة الصيغ داخليا في صلب النظام اللساني وذلك بتحديد مكانة الكلمة وعلاقاتها في النظام اللساني في نفس الوقت وكذلك في إطار الظرف التاريخي.

وهكذا فإنّ تأصيل الكلمة يمثل قمة هرم ثلاثي تمثل قاعدته: تاريخ الكلمة وحياتها وعلاقاتها.

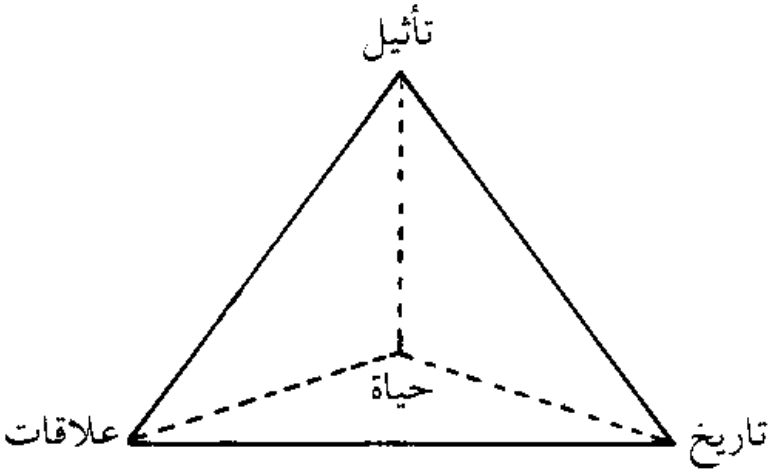

2 ـ 3 ـ 5 : ان التـاريخ بحكم تأثيره في حياة الكلمة وعلاقاتها بغيرها في النظام اللساني، يثير عدة قضايا من أهمها:

أ ـ **تحديـد الدلالة الاولى للكلمة** في الفترة التي دخلت فيها نظام اللغة لاول مرة. هذه العملية كثيرا ما يكتنفها الغموض إذا لم يتوفر ما يكفي من القرائن لذلك تبقى المقاربة الاساسية في هذا المجال قائمة على مقـارنـة الـدلالة المعنية بالدلالات السابقة واللاحقة مباشرة اي الحالات الاقرب زمنيا من قبل ومن بعد.

ب ـ **تحديد طبيعة التغير الدلالي عبر الزمن**، هذه القضية تسعى نظرية التطور اللسانية الى معالجتها بجعل كل تغيير مهما كان نوعه قائما أساسا على تغير العلاقات وبالخصوص علاقات التقابل من الناحيتين الزمانية والآنية. فتغير علاقات التقابل **زمانيا** يحدث بين دلالة سابقة ودلالة لاحقة، اما آنيا فانه يحدث في صلب النظام بحكم تواجد عدة دلالات.

لذلك لا يكفي تسجيل ظهور دلالة من الدلالات وإنما يجب تسجيل استقرارها الى جانب دلالة جديدة لاحقة وذلك لاهمية الترابط بين الدلالات، ولان الدلالة الجديدة كثيرا ما تستمد قيمتها ومردودها من الدلالة السابقة[10].

2 ـ 3 ـ 6 : ويتبين لنا مما سبق ان علم التأثيل الحديث يقوم على ضربين من التحليل متقابلين[11].

أ ـ **التحليل الأول زماني، إذن تأريخي**، يعتمد **عناصر خارجية** يحلل بمقتضاها قضايا اصل الكلمة وتطورها شكلا ومحتوى.

---

(10) ـ lmbs ص 8.

(11) ـ 1967 Larousse, *Structures étymologiques du lexique français* P. Guiraud (Self) ص 5

ب ـ **التحليل الثاني آني، اذن نظامي** يعتمد العناصر الداخلية المكونة لهيكل اللسان من حيث علاقاتها في صلب النظام اللساني.

هذان التحليلان المتقابلان لا يتناقضان الا في الظاهر، وانما يتكاملان لان الكلمة تمثل في الحقيقة أثرا من آثار ضغط التاريخ على نظام اللسان. فلا التاريخ وحده يكفي ولا النظام وحده يكفي لتفسير كلمة او تعليلها نشأة ودلالة وتطوّرا، وانما يتم ذلك بفضل تلاقيهما ومفعولهما معا.

فالدلالة الكامنة بالقوة في النظام اللساني تحتاج الى حدثان التاريخ لتُحقَّق وتُنجزَ[12].

وإن ما عبر عنه سوسور باعتباطية الدليل، اي اعتباطية العلاقة الدلالية بين الدال والمدلول انما تكمن من الناحية التأثيلية في العلاقة الفردية بين الأصل والفرع، اما العلاقة بين المجموعات والأصناف المعجمية فانها لا تكون اعتباطية وانما هي قابلة للتعليل لان كل مجموعة تتكوّن من سلسلة الكلمات ذات الصفات المشتركة صرفيا ودلاليا.

ويتبين لنا إذَن أن المنهج التاريخي في نهاية المطاف ليس تاريخيا محضا وانما تلتقي فيه المقابلات الزمانية والمقابلات الآنية بشكل يدعم في ظاهر الامر على الاقل نزعة اللسانيات الهيكلية الى إخضاع الزمانية للآنية.

لكن الحقيقة ان **الحركية اللسانية** هي التي تجعل التناقض الظاهري بين الزمانية والآنية ينتفي او يتحيّد بالتقائهما على صعيد مبدإ التقابل بين العناصر اللسانية.

ويمكن ان نقول ان المنهجية الهيكلية قد أفادت كثيرا علم التأثيل واستفادت منه حين توصلت في النهاية الى حل اشكال التناقض بين المفاهيم الاساسية المتقابلة:

---

(12) ـ نفس المصدر، ص.6

الزمانية / الآنية
التاريخ / النظام
التعليل / الاعتباط الخ . . .

وعلى اساس هذا التحليل لا يبقى في نظرنا اختلاف جوهري بين مفهومي المعجم التاريخي والمعجم التأثيلي. فالمهم ليس التسمية في حدّ ذاتها وانما هو التحديد وتوضيح المحتوى المقصود.

3 ـ القضايا النظرية والمعجمية المتعلقة بالمعجم التاريخي

ان قضـايا تحديد المـوضوع والمفاهيم الاساسية تقودنا حتما الى معالجة القضايا النظرية والمنهجية المتعلقة بالمعجم التاريخي.

3 ـ 1 : أهم القضايا النظرية :

3 ـ 1 ـ 1 : اذا كان لكـل كلمـة تاريخها كما رأينا، فان هذا التاريخ يبقى نسبيا لانه مقيد بالكلمات الاخرى التي ترتبط بها الكلمة المعنية شكـلا ودلالـة. وانه لدور المعجم التاريخي أن يشعر القارىء أن الكلمـة ليست منعـزلة وانما تشتغل وتتطور ضمن مجموعة. فكل كلمة في اللسان تستمد كما راينا قيمتها من علاقاتها بغيرها في النظام مركّبيّا وجريديا[13].

إن إشعار القارىء بذلك هام لان الكلمات تتجمع في الذاكرة في شكل **شبكات معجمية متعددة**[14]. وهذا التشابك مزدوج اذ يمكن للكلمـة الـواحدة التواجد في عدة شبكات حسب نوع العلاقة سواء أكانت دلالية أم صرفية أم صوتية، لانها تحدّد تباعا المجالات الدلالية والاسلوبية والصرفية والصوتية وغيرها من العلاقات.

---

(13) ـ على التوالي paradigmatiquement, syntagmatiquement

(14) ـ Imbs ص 6

3 ـ 1 ـ 2 : وان هذا التشابك في العلاقات هو أحد العوامل الأساسية في **تعدد الدلالات** بالنسبة الى الكلمة الواحدة. وهذا التعدد يمثل بدوره مظهرا من مظاهر التطور.

ويكفي ان نقارن في هذا الصدد بين معاني **قطار** او **قنبلة** في العربية قديما وحديثا لنتبين مدى التطور الحاصل فيهما. وهكذا فان الدال الواحد كثيرا ما تتفرع عنه عدة وحدات معجمية ذات حافات متباينة تزيد من حركية اللسان معجميا.

3 ـ 1 ـ 3 : كما تثير الحركية المعجمية قضية مكانة الكلمة في النظام اللساني والانجاز الخطابي انطلاقا من المقابلة السوسورية بين اللسان من حيث هو نظام والحديث[15] من حيث هو خطاب منجز في حدود النظام.

وفي هذا المجال يعتبر «قيّوم» ان **الدليل اللساني** واسطة بين ما يسميه **المدلول بالقوة** في اللسان **والمدول بالفعل** في الخطاب.

إن هذا الثالوث يكاد يتطابق مع ما يسميه «هيلمسلاف» تباعا **الهيكل والاستعمال والنص**.

هذه المستويات الثلاثة تحدد المعجم القائم بدوره على ثالوث مواز يتركب بدوره من النظام والقاموس والنص، وبذلك يكون القاموس «مجموع استعمالات كل كلمة في النصوص»[16].

أما النظام المعجمي فانه مازال في حاجة الى البناء، وان ما يوجد حاليا من بحوث في جميع اللغات انما هي محاولات هامة ولكنها لم تبلغ بعد الهدف المتمثل في ضبط جميع أصناف الكلمات وتعريفها بعلاقاتها في النظام اللساني المدروس. **فالخطاب لا ينجز الا جزءا من النظام**. ويكاد يكون من المستحيل ان يستوفيه، فهو يتوسع في نطاقه دون ان يبلغ جميع حدوده.

---

(15) ـ parole/langue

(16) ـ *SELF* -P. Guiraud

ولما كان الهيكل المعجمي لا يحقق الا جزءا من الهيكل العام في اللسان فان التاريخ هو الذي يتولى سدّ الشغور طبقا لحاجات المجتمع الظرفية دون ان يستوفيها كذلك لان إمكانيات النظام اللساني لا حدّ لها[17].

يتضح لنا إذن مما سبق ان عملية تشخيص المجموعات المعجمية وضبطها هي التي تمكن من تأثيل الوحدات المعجمية والوصول الى بناء أنماطية **الاستحداث المعجمي** وقوانينه[18].

3 ـ 1 ـ 4 : وتتبع عملية التشخيص والضبط عملية ترتيب الوحدات المعجمية في صلب النظام اللساني.

إن المعجم في اي لسان، لا يتكون كما قد يتبادر الى الذهن لاول وهلة من قائمة كلمات[19] وانما من قائمة مجموعات او أصناف من الكلمات ذات مستويين:

مستوى صرفي يهم الدوال ومستوى دلالي يهم المدلولات.

ويتضمن كل صنف مجموعة من الكلمات تشترك في خصوصيات صرفية وخصوصيات دلالية.

فالاصناف تتحول في مستوى حركية المعجم الى قوالب قياسية صالحة للاستحداثات الممكنة او المحتملة، وهو ما يجعل الكلمة تستمد قيمتها الاساسية من علاقاتها ومكانتها في النظام المعجمي اكثر مما تستمدها من أصلها وتاريخها اللذين كثيرا ما ينسيان.

فالعلاقة الاشتقاقية مثلا بين الاصل والفرع هي أساس العلاقة الدلالية بين الدال والمدلول.

ان هذه الحركية توضح كذلك التفاعل بين الاصل والدلالة

---

(17) ـ لنقارن على سبيل المثال بين مفهومي «المستعمل» و«المهمل» في نظرية الخليل بن احمد العبقرية في كتاب العين.

(18) ـ Guiraud ، المصدر السابق ـ ص 189

(19) ـ مفاتيح الالسنية لجورج مونان، تعريب الطيب البكوش ـ تونس 1981 ـ ص 70

وتؤكد تبعا لذلك التكامل بين الآنية والزمانية . فالاصل الاشتقاقي وهو **الأثل**[20] يصبح بمثابة الطرف الثالث الوسيط بين الدال والمدلول[21] .

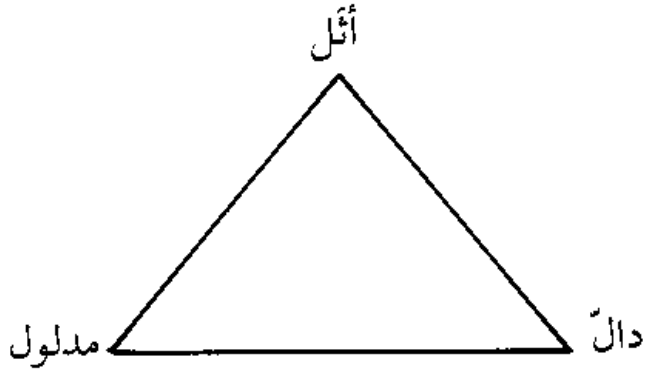

3 ـ 1 ـ 5 : اما الدلائل الحاصلة باتحاد الدوال والمدلولات[22] والتي يتكون منها المعجم فانها تتوسط بدورها العلاقة بين النظام اللساني والخطاب المنجز في إطاره :

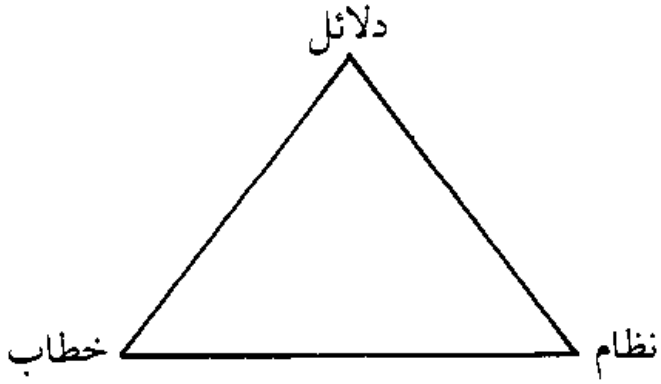

ويلخص «قيرو» تلخيصا جيدا هذه العلاقة الثلاثية بقوله : «ان الخطاب يستحدث الكلمات بواسطة موادّ يمدّه بها التاريخ فيستعمل هذه الكلمات بحكم حاجيات عرضية ولكن طبقا لنظام قوالب معجمية»[23] .

---

(20) ـ Etymon

(21) ـ Guiraud ، المصدر السابق ـ ص 196

(22) ـ انظر نظرية سوسور حول الدليل اللساني، المرجع المذكور سابقا

(23) ـ Guiraud ، المصدر السابق ـ ص 202

ويتضح من هذا القول تواجد العوامل الداخلية والخارجية في استحداث الكلمات. فالتطور الذي يطرأ على الدال نتيجة التغيرات الصوتية وعلى المدلول نتيجة التغيرات المرجعية يمثل مقياسا تأثيليا أساسيا ولكنه **مقياس خارجي** بالنسبة الى النظام اللساني. اما التغيرات التي تحدث في مستوى العلاقات القائمة بين الدلائل فانها تمثل **مقاييس داخلية** في صلب النظام اللساني.

فاذا كانت كلمات الحكاية من الصنف الداخلي إطلاقا، فان الكلمات الدخيلة هي أساسا من الصنف الخارجي، إلا أنها يمكن ان تندمج بسهولة اذا تلاءمت مع الهياكل الداخلية في النظام اللساني كما هو الشأن في مثل **مناورة**[24].

فاذا كانت **المشتقات** تندرج ضمن التأثيل الداخلي، فان **المعربات** والدخيل عموما تندرج مبدئيا ضمن التأثيل الخارجي، لكنها يمكن ان تجمع بين الاثنين في حالات الاندماج المثلى[25] التي تفسر استقرار بعض الالفاظ الدخيلة في نظام اللسان. ولعل حالة الاندماج المثلى هي خضوع الدخيل لعملية الاشتقاق مثل **فلسفة** قديما ومعاني **الطيران** حديثا، او مثل **دوش** في الدارجة التونسية، الخ.

3 ـ 2 : أهم القضايا المنهجية :

3 ـ 2 ـ 1 : ان المعجمية الحديثة تتجاذبها اليوم منهجيتان:

أ ـ الاولى قائمة على **جرد واسع للنصوص** وهي المنهجية المتبعة لانجاز «كنوز اللسان الفرنسي»[26] هذه المنهجية تعتمد أساسا على الجانب التاريخي.

---

(24) ـ manœuvre

(25) ـ الطيب البكوش، اشكاليات اندماج الدخيل في المعجم، مجلة المعجمية عدد 3، 1987 ـ ص 14 ـ 60.

(26) ـ يمثلها خاصة Wartburg

ب ـ والثانية، هيكلية تعتمد أساسا **البحث عن المناويل**.

بيد ان المنهجيتين لا تتناقضان في الواقع وإنما تتكاملان لان التاريخ هو الذي يكمل نقائص الهيكلية على أساس ما سبق أن رأينا من تكامل بين الآنية والزمانية.

3 ـ 2 ـ 2 : وبفضل هذا التكامل يمكن معالجة قضية **التعريفات القاموسية** في المعجم التاريخي بامكانيات اكبر وأنجع.

3 ـ 2 ـ 2 ـ 1 : ان الوظيفة الاساسية للتعريف القاموسي تتمثل في ضبط المحتوى الادنى المشترك بين جميع المستعملين وهو المميّز للكلمة عن غيرها.

نقول «الأدنى» لان محتوى الكلمة يختلف باختلاف المستوى الثقافي لدى المستعملين للقاموس.

فالتحديد الاساسي يمثل في شكل جملة نعتية معادلة بين طرفين متقابلين هما المعرَّف والمعرِّف. لكن القاموسيين كثيرا ما يختصرون العملية باللجوء الى الترادف رغم ندرة الترادف المطلق. هذا فضلا عن مظاهر السطحية في بعض القواميس العربية المتمثلة في ترديد عبارة «معروف» وخاصة لبعض انواع الحيوان والنبات. فاذا لم يكن التعريف اوضح من الكلمة المشروحة لدى القراء على اختلاف درجاتهم الثقافية فانه يخل بوظيفة التعريف والشرح.

3 ـ 2 ـ 2 ـ 2 : لكن تحديد الكلمة يتغير حسب الظرف والسياق، لذلك يتطلب التعريف تحديدا مسبقا لهما. فالسياق الثقافي والحضاري من العناصر المكونة للتعريف لانها تغير محتواه، ذلك ان تاريخ الكلمة أصلا ومسارا يترك لا محالة بعض الاثر في الدلالة الآنية. ولهذا كان المنطلق في عملية الرجوع الى الاصل متمثلا في تبين البقايا والآثار الدالة على الاصل.

3 ـ 2 ـ 2 ـ 3 : وفي هذا الصدد تكمن الصعوبة الكبرى في

تحديد الفاصل الذي يجعل الكلمة تتغير وتصبح كلمة أخرى. فكيف يمكن إذَن **التوفيق بين التواصل الزماني والتفاصل الدلالي؟** ذلك ان التفاصل الدلالي كثيرا ما يتدرج عبر الزمن من التفاصل الجزئي الى التفاصل التام فيؤول الى ميلاد كلمة جديدة شكلا او محتوى[27]. فالإشكال يتمثل في ان مقاييس التحديد ليست دائما موضوعية وانما هي كذلك نفسية ارتسامية.

ويقترح «أمبس»[27] في هذا المجال مقياسين:

أولهما مقياس مخلفات الصورة الاساسية

وثانيهما **مقياس قابلية الاستبدال بين المترادفات** رغم انه مقياس نسبي لان المجالات الدلالية بين المترادفات يندر ان تكون متماثلة.

3 ـ 2 ـ 2 ـ 4 : وبالاضافة الى ما سبق كثيرا ما يرجع التعدد الدلالي الى تعدد اللهجات الجهوية او المحلية او حتى الاجتماعية والمهنية، ولهذه اللهجات اهمية كبرى في الدلالة على واقع اللغات الرسمية او الثقافية التي تتأثر حتما باللهجات.

هذا الجانب من الموضوع يجعل القاموس التاريخي بالضرورة قاموسا جغرافيا كذلك.

وإذا أضفنا الى ذلك إمكانيات مقارنة الكلمة بمقابلها في اللغات القريبة (العربية واللغات السامية مثلا) او في اللغات التي يمكن ان تكون الكلمة قد انتقلت منها او عبرها، فان القاموس التاريخي يكتسب بالاضافة الى البعد الجغرافي بعدا موسوعيا لانه يعادل حينئذ الموسوعة اللغوية.

ونأخذ على سبيل المثال كلمة بازار الفارسية وكيف مرّت عن

---

(27) ـ Imbs المصدر المذكور أعلاه

طريق العربية والتركية الى الفرنسية مثلا ومنها الى العربية التونسية مع اختلاف دلالي واضح (استهجان في الفرنسية واستحسان في التونسية).

فالتعريف القاموسي الذي يبدو لاول وهلة مسألة بديهية، يمثل في الواقع من الناحية المنهجية قضية دقيقة ذات بعد موسوعي، يزيدها تعقيدا غموض مفهوم الكلمة[28] التي لا تمثل دائما وحدة معجمية دنيا وانما تمثل في جل اللغات وفي أكثر الاحيان مركبا من اللفاظم[29].

3 ـ 2 ـ 3 : ومن النتائج المنجرة عن تغير محتوى الكلمة حسب الظرف والسياق **اختيار الشواهد** لتوضيح محتوى الكلمة في سياقها. وتثير الشواهد عدة قضايا اخرى نحوية وتركيبية بالخصوص تزيد من تشابك المسائل لان الشواهد تقحم الكلمة في شبكات تركيبية من جهة وفي شبكات دلالية من جهة اخرى.

بيد ان علاقات الكلمة داخل الشبكات الدلالية تبقى اهم من علاقاتها داخل الشبكات التركيبية من وجهة النظر المعجمية والقاموسية. ومن الشواهد صنف متميز يحتاج الى عناية خاصة وهو صنف العبارات الاصطلاحية او الجامدة التي قد تتخذ شكل الفرائد والامثال، فهي في الغالب عبارات قديمة تتجمد في قوالب قديمة كثيرا ما يكون لها دور هام في عملية التأثيل.

3 ـ 2 ـ 4 : وقد يرى البعض ايضا ضرورة ذكر **التواتر** في المعجم التاريخي باعتبار التواتر عنصر تقييم هام لتطور الكلمة في المعجم. لكن ترتيبا على اساس التواتر قد يتناقض مع الترتيب التاريخي لان الالفاظ الاكثر تواترا ليست بالضرورة اقدم[30]. وفي هذا تضارب بين مقتضيات الآنية ومقتصيات الزمانية.

---

(28) ـ A. Martinet, *Eléments de linguistique Générale*, C.A.C, ط 3. 1963 ـ ص 112 ـ 115 حول اشكالية «الكلمة».

(29) ـ monème على سبيل المثال الوحدة الصرفية الدخيلة من التركية «جي» الدالة على المهنة خاصة، يمكن عزلها وتأثيلها في معجم عربي تاريخي

(30) ـ Imbs، نفس المصدر

4 ـإمكانيات توظيف التراث المعجمي العربي في إنجاز المعجم التاريخي:

4 ـ 1 : ان التراث المعجمي العربي لا غنى عنه لانجاز المعجم التاريخي لانه يتضمن مادة ثرية. لا بما يقدمه من شروح ومعان فحسب وانما بما يتضمنه ايضا من شواهد، خاصة ان جلها قديم، نثرا وشعرا وأمثالا، ومن ملاحظات هامة حول اختلاف اللهجات وحول الغريب والفصيح واللحن والمعرب، الخ.

4 ـ 2 : ومن أهم منجزات المعجمية العربية وأقدمها، **كتاب العين** للخليل بن احمد الفراهيدي الذي طبق منذ بداية القرن الثاني للهجرة على المعجم العربي نظرية طريفة قائمة على مقابلة بين الصيغ النظرية الممكنة الكامنة في هياكل اللسان العربي بالقوة، والصيغ المنجزة بالفعل. وهي النظرية التي مكنته من جرد ما سماه «المستعمل» في مقابل «المهمل» الذي يمثل إمكانيات العربية غير المستعملة معجميا، فهي بمثابة الرصيد الاحتياطي. وقد أفادت هذه النظرية «ابن جني» في التعمق في تحليل **الاشتقاق** ونعتقد ان نظريته تفيد كثيرا في المعجم التاريخي لانها تنبني على تحليل علاقات داخلية في نظام اللغة لم يعن بها غيره نفس العناية.

4 ـ 3 : كما ان المعاجم الاصطلاحية مثل التعريفات «لابي الحسن الجرجاني» (ق. 8ـ9هـ) هامة جدا لتدقيق المفاهيم في الميادين العلمية.

وتتصل بها معاجم **الفروق** مثل «الفروق في اللغة» لابي هلال العسكري (ق. 4هـ) وهي المعاجم التي تعنى بتدقيق المعاني وضبط حدود المجالات الدلالية بين الكلمات خصوصا ان بعض كتب **فقه اللغة**[31] تنزع الى تجميع الكلمات في مجموعات تبدو كانها مترادفة.

---

(31) ـ مثل فقه اللغة للثعالبي وغيره

4 ـ 4 : ورغم ان اهتمام العرب **بالدخيل** من خلال جمع **المولّد** قد كان سلبيا في الغالب بمعنى انه لم يدرس لذاته وانما درس من حيث مقابلته للفصيح ، فان ما تركوه لنا مثل معرب الجواليقي (ق. 5ـ6هـ) لا غنى عنه ايضا في المعجم التاريخي لان جميع المستحدثات المعجمية تمثل الارصدة الاضافية بحكم تطور الحياة الاجتماعية والتوسع العمراني والحضاري من حدود الحضارة العربية البدوية أساسا الى حدود الحضارة العربية الاسلامية المدنية.

4 ـ 5 : ويمكن ان نعتبر ما تركه اللغويون العرب في موضوع **الغريب** من ناحية ـ وهو يمثل الرصيد المتقادم الذي خرج أو أخذ يخرج من الاستعمال ـ وفي موضوع **اللحن** من ناحية اخرى، دليلا على بداية الشعور بالتغيير اللساني الذي لم يكن يُنظر اليه في الغالب بمنظار التطور وانما بمنظار الفساد المخل بالفصاحة وسلامة اللسان. فهو إذَن يوصف ليقاوم ويجتنب.

ونلاحظ في هذا الصدد ان كتب اللحن بنوعيها، اي لحن الخاصة ولحن العامة تثير قضايا اخرى بالاضافة الى التطور، منها قضية تعدد اللهجات وتداخلها ومنها تفاعل العربية واللغات الاعجمية وتأثر العرب بالاعاجم وتأثر عربية الاعاجم بلغاتهم الاصلية.

4 ـ 6 : ولا يمكن المعجم التاريخي ان يهمل المعاجم التكميلية التي اعتنت بما أهملته المعاجم التقليدية. ونخص بالذكر معجم دوزي[32] الذي يأخذ عن الدارجات ايضا ما سجلته كتب المؤرخين والجغرافيين والرحالة وغيرهم من كلمات تعبر عن مظاهر من الحياة اليومية تتميز بحيويتها وتجددها المتواصل.

---

(32) - R. Dozy *Supplément aux dictionnaires arabes* Leyde, Brill, 1881

4 ـ 7 : اما اليوم فان **لغة الصحافة** قد أصبحت مصدرا زاخرا مفعما بالكلمات والمعاني الجديدة استحداثا وتوليدا أو نسخا وتعريبا. هذا بالاضافة الى **المعاجم الاصطلاحية** الحديثة المختصة وما وضعته المجامع ومؤسسات البحث وما ذيل به المترجمون معرباتهم في جميع مجالات المعرفة العصرية.

وفي هذا الصدد يمثل تعدد المقترحات من قطر عربي الى آخر ومن باحث الى آخر عنصر ثراء من ناحية وفوضى من ناحية اخرى مما يتطلب **عملية تنميط وتوحيد** ضرورية لانجاز المعجم العربي التاريخي.

وقد لا نبالغ اذا قلنا ان الجهود التي بذلها المعجميون العرب باعتبار ما يتوفر لديهم اليوم من إمكانيات بشرية ومادية وعلمية قد بقيت نسبيا دون الجهود التي بذلها الاسلاف. بل انهم في بعض الاحيان قد عرقلوا من حيث لا يعلمون التطور اللغوي العظيم الذي عرفته العربية منذ عصر النهضة وخاصة في القرن الاخير. فالاسلاف قد أسسوا ولا يمكن ان نطلب منهم اكثر مما قدموا. اما اليوم فان من حق العربية ان تطلب اكثر مما انجز رغم أهميته.

5 ـ القضايا المتصلة بوسائل الانجاز العملية

5 ـ 1 : بالاضافة الى ما سبق ذكره من استغلال علمي شامل للتراث المعجمي العربي، يقتضي إنجاز المعجم التاريخي عملا جديدا **توثيقيا** يتميز بالجماعية والشمول. هذا العمل يتطلب فرقا توثيقية دائمة على غرار الفرق التي تعمل في خدمة قاموس اكسفورد الانكليزي او كنوز اللسان الفرنسي.

5 ـ 2 : ويمكن ان يتم العمل التوثيقي في اتجاهين أساسيين.

* اتجاه ضبط **ببليوغرافيا** لجميع الاعمال المعجمية العربية الى اليوم
* واتجاه **جرد النصوص** موزعة على اهم الفترات التاريخية طبقا لخطة يضبطها فريق من الخبراء، على ان تتم **حوسبة** حصيلة هذه الاعمال الجبارة اي خزنها في الذاكرات الآلية وذلك باستغلال جميع امكانيات

الاعلاميات التي لا تنفك تبهرنا كل يوم بامكانياتها الهائلة المتطورة.

5 ـ 3 : كما يمكن دعم هذه الاعمال المتواصلة بتوجيه جزء هام من البحوث الجامعية اللسانية في الاقطار العربية في نفس الاتجاه لاثراء العمل نظريا ومنهجيا.

5 ـ 4 : ويقوم **فريق من الخبراء** الذين يمثلون حلقة الوصل بين الموثقين والمعجميين باستغلال الوثائق المجمعة وترتيب المادة الحاصلة حتى يمكن:

أ ـ **ترتيب الكلمات هجائيا** وهو ترتيب شكلي في مستوى الدوالّ.

ب ـ **ترتيب معاني الكلمة** حسب ظهورها تاريخيا وهو ترتيب المدلولات مع تواريخ ظهور المعاني ومع إبراز تواصل المعنى او انقطاعه او انزلاقه، الخ.

5 ـ 5 : وقد يرى البعض ان وضع المعجم التاريخي يتطلب البدء بوضع **معاجم آنية** لاهم الفترات التاريخية، تصف اللسان العربي في فترة زمانية معينة من تاريخه، كأن نضع معجما لعربية الجاهلية وآخر لعربية صدر الاسلام وآخر للعصر العباسي حتى نصل الى اليوم.

لا شك ان مثل هذه المعاجم عظيمة الفائدة ومازالت العربية تفتقر اليها. ولكننا لا نعتقد انه يجب انتظار انجازها مسبقا اذ نخشى ان يطول انتظارنا وقد طال بعد. وانما نعتقد انه يمكن إنجازها بصفة موازية لإنجاز المعجم التاريخي على أن يعدّل المعجم التاريخي باستمرار كلما تم التقدم في إنجاز المعاجم الآنيّة.

5 ـ 6 : ومن القضايا العملية الدقيقة في مستوى الانجاز، قضية التنسيق بين المؤلفين نظرا لارتفاع عددهم وتباين أساليبهم في معالجة المواضيع، وهو أمر يتطلب ضبط منهجية موحدة دقيقة وتوفير هيكل إشراف في قمة الهرم اذا تعددت فرق العمل.

5 ـ 7 : ومن البديهي ان عملا ضخما كهذا يتطلب من البشر ما يكفي عددا وعدة لانجاز التوثيق والترتيب والخزن والحوسبة ثم التاليف والتحرير. كما يتطلب مقرا دائما يليق بهذا العمل وميزانية قارة تليق بهذا

المشروع الحضاري الذي يجب ان لا يغيب عن الاذهان انه عمل لا ينتهي لانه تاريخي يتجدد بتجدد اللسان وتطوره[33].

وفي الختام يمكننا التأكيد على الملاحظات التالية:

1 ـ ان المعجم التاريخي يجب ان يكون أشمل ما يمكن. فلا يهم الحجم اذ يسهل بعد ذلك استخراج معاجم مختصرة أو مبسطة حسب الحاجة وحسب المستوى الذي يتوجه اليه.

2 ـ ان متانة الروابط بين اللسانيات والمعجمية والقاموسية والاعلامية وعلاقة المعجم التاريخي بشتى المعارف الاخرى يتطلب من مؤلفي المعجم التاريخي ان لا يكونوا مجرد لغويين وانما يحتاجون الى ثقافة موسوعية يندر ان تتوفر اليوم في الفرد. ولذلك يعوض هذا النقص بالعمل الجماعي المتعدد الاختصاصات الذي تبقى المعجمية محوره وتمثل العلوم الاخرى روافده.

3 ـ ان المعجم التاريخي في حاجة الى ان يقع دعمه بدراسات متعددة الجوانب بما فيها الدراسات اللهجية. ولا غضاضة في القول بان العربية مازالت في حاجة الى الكثير من الدراسات اللسانية في جميع الميادين.

كما أنه لا غضاضة في الاستفادة من تجارب من سبقنا في هذا الميدان من الامم التي فهمت مبكرا ان تقدمها الحضاري يمكن ان يقاس بمعجمها. فعلينا إذَن أن نتدارك ما لا يقل عن قرن[34] من التقاعس عن انجاز المعجم العربي التاريخي.

الطيب البكوش
جامعة تونس الأولى

---

(33) ـ كلّ لسان حيّ يتطور ويتجدد معجمه باستمرار فقد تجدد اللسان الفرنسي خلال عشرية الخمسينات من هذا القرن بنسبة الربع تقريبا من خلال مواد قاموس لاروس الصغير، انظر الارقام بالتفصيل في *Linguistique* باشراف F.François P.U.F., 1980 ص 183.

(34) ـ الانكليز شرعوا في اعداد معجمهم التاريخي منذ اكثر من قرن وأنجزوه في نصف قرن وهم الآن في مرحلة التعهد المتواصل.